ومثال ذلك أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن جعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص]

فالضياء يُرى لا يُسمع .. لكنه قال : ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ لأنه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك فى الليل هى السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ[2] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ (٦٦) ﴾

الكون الذى خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل فى الأرض والجبال والمياه وغيرها ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفى الآية السابقة أعطانا الحق - تبارك وتعالى - نموذجاً للجماد الذى اهتزّ بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ..(٦٦) ﴾ [النحل]

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

(٢) الفرث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كريه الرائحة . [القاموس القويم ٧٤/٢] .

المقصود بالأنعام : الإبل والبقر والغنم والماعز ، وقد ذُكرتْ فى سورة الأنعام فى قوله تعالى :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤)﴾ [الأنعام]

هذه هى الأنعام .

وقوله سبحانه : ﴿لَعِبْرَةً﴾ العِبْرة : الشىء الذى تعتبرون به ، وتستنتجون منه ما يدلكم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدْق منهجه سبحانه فتصدقونه .

ومن معانى العبرة : العبور والانتقال من شىء لآخر .. أى : أن تأخذ من شىء عبرة تفيد فى شىء آخر . ومنها العَبْرة (الدمعة) ، وهى : شىء دفين نبهْتَ عنه وأظهرتَهُ .

والمراد بالعبرة فى خلق الأنعام :

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]

مادة : سقى جاءت فى القرآن مرة « سقىٰ » . ومرة « أسْقى » ، وبعضهم[1] قال : إن معناهما واحد ، ولكن التحقيق أن لكل منهما

(١) من هؤلاء ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : سقى . قال : وفى القرآن : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا .. (٤٩)﴾ [الفرقان] من سقى . ونُسقيه من أسْقى . وهما لغتان بمعنى واحد .

معنًى ، وإن اتفقا فى المعنى العام[1]

سقى : كما فى قوله تعالى :

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

أى : أعطاهم ما يشربونه .. ومضارعه يَسقى . ومنها قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام :

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ..(٢٤)﴾ [القصص]

أما أسقى : كما فى قوله تعالى :

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)﴾ [الحجر]

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس فى حال نزوله ، ولكن ليكون فى الأرض لمن أراد أنْ يشربَ .. فالحق تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه .. لا .. بل هو مخزون فى الأرض لمن أراده . والمضارع من أسْقى : يُسقى .

إذن : هناك فَرْق بين الكلمتين ، وإن اتفقتا فى المعنى العام .. وفرْق بين أن تُعطى ما يُستفَادُ منه فى ساعته ، مثل قوله :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ ..(٢١)﴾ [الإنسان]

وبين أنْ تعطى ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما فى قوله :

---

(١) قاله الفراء فيما نقله عنه ابن منظور فى اللسان : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم « أسقيت » ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا « سقاه » ، ولم يقولوا : أسقاه . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ..(٢٢)﴾ [الحجر]

لذلك يقولون : إن الذى يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطى المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ، وقد يصنعه مُؤجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسْب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسْبه .

والحق - تبارك وتعالى - أعطانا هذه الفكرة فى سورة الكهف ، فى قصة ذى القرنين ، قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)﴾ [الكهف]

فما داموا لا يفقهون قَوْلاً .. فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا :

﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤)﴾ [الكهف]

نقول : الذى يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أنْ يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصّل إلى طريقة للتفاهم معهم ، فى حين أنه كان قادراً على ترْكهم والانصراف عنهم ، وحُجّته أنهم لا يفقهون ولا يتكلمون .

فلما أراد ذو القرنين أن يبنى لهم السد لم يَبْنِ هو بنفسه ، بل علّمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ، ولا يحتاجون إليه .. فقال :

---

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١٨٩/١] .

﴿آتُونِي زُبَرَ[(١)] الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف]

إذن : علَّمهم وأحسن إليهم إحساناً دائماً لا ينتهى .

وقوله : ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ..(٦٦)﴾ [النحل]

أى : مما فى بطون الأنعام ، فقد ذكَّر الضمير فى (بطونه) باعتبار إرادة الجنس .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ..(٦٦)﴾ [النحل]

والفَرْث فى كرش الحيوان من فضلات طعامه .

فالعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرْث ، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطعام فى كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنفِّر ، ومن بين دم ، والدم له لونه الأحمر ، وهو أيضاً غير مُسْتساغ ؛ ومنهما يُخرِج لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة الفَرْث .

ومَنْ يقدر على ذلك إلا الخالق سبحانه ؟

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]

---

(١) زُبر الحديد : قطعه . الصدفان : الجبلان وقيل : ما بينهما . أى : وضع بعضه على بعضه من الأساس حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً قال انفخوا . والقطر : النحاس المذاب . [قاله فى تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤] .

أى : يسيغه شاربه ويستلذ به ، ولا يُغَصُّ به شاربه ، بل هو مُسْتساغ سَهْل الانزلاق أثناء الشُّرْب ؛ لأن من الطعام أو الشراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء]

هنيئاً أى : تستلذّون به ، ومريئاً : أى نافعاً للجسم ، يمرى عليك ؛ لأنك قد تجد لذَة فى شىء اثناء أكْله أو شُرْبه ، ثم يسبِّب لك متاعب فيما بَعْد ، فهو هَنِىءٌ ولكنه غير مَرِىء .

فاللبن من نعَم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفى إخراجه من بين فَرْث ودم عبرة وعظَة ، وكأن الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحِسىِّ الذى نشاهده إلى المعنى القيمىّ فى المنهج ، فالذى صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قالبنا قادرٌ على أن يصنعَ لنا من المنهج ما يُصلِح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثمرات النخيل هى : البلح . والأعناب هو : العنب الذى نُسمّيه الكَرْم . والتعبير القرآنى هنا وإن امتنَّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكراً : أى مُسْكِراً ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرةً فقد نزلتْ هذه الآيات قبل تحريم الخمر .

وكأن الآية تحمل مُقدّمة لتحريم الخمر الذى يستحسنونه الآن ويمتدحونه ؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذى يقرأ هذه الآية بفطنة المستقبِل عن الله يعلم أن لله حُكْماً فى السكر سيأتى .

كيف توصَّلوا إلى أن لله تعالى حُكْماً سيأتى فى السكر ؟

قالوا : لأنه قال فى وصف الرزق بأنه حسن ، فى حين لم يَصفْ السكر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسناً ؛ ذلك لأننا نأكل ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون تدخُّل منّا فيما خلق الله لنا .

أما أنْ نُغيِّر من طبيعته حتى يصير خمراً مُسْكراً ، فهذا إفساد فى الطبيعة التى اختارها الله لنا لتكون رزقاً حَسناً .

وكأنه سبحانه يُنبِّه عباده ، أنَا لا أمتنُّ عليكم بما حرَّمْتُ ، فأنا لم أحرِّمه بَعْد ، فاجعلوا هذا السكر - كما ترونه - متعةً لكم ، ولكن خذوا منه عبرة أنِّى لم أصفْه بالحُسْن ؛ لأنه إنْ لم يكُنْ حَسَناً فهو قبيح ، فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الأمر .

ثم يقول تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [النحل]

لأن العقل يقتضى أنْ نُوازِنَ بين الشيئين ، وأن نسأل : لماذا لم يوصف السكر بأنه حَسَن ؟ .. أليس معناه أن الله تعالى لا يحب هذا الأمر ولا يرضاه لكم ؟

إذن : كأن فى الآية نيّة التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر كان هذا تمهيداً له .

والآية هى : الأمر العجيب الذى يُنبئكم أن الله الذى خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيكم وقوالبكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرِّع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمية الروحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

النحل خَلْق من خَلْق الله ، وكل خَلْق لله أودع الله فيه وفى غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

أى : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حَسْب ما يتناسب مع طبيعته ؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف .. فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حَدِّ التُّخْمة ، ثم بعد ذلك يشتكى مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإنْ أجبرته على الأكل ؛ ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للغريزة فى الحيوان بالحمار الذى يتهمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سُقْتَه ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة .. فإذا ما وجدها فى مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع

ولم يُقدِم عليها ، وإنْ ضربتَه وصِحْتَ به .. فلا تستطيع أبداً إجباره على شيء فوق قدرته .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التى جعلها الله سبحانه فيه ، على خلاف الإنسان الذى يفكر فى مثل هذه الأمور ليختار منها ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ، فنستطيع أن نُشبِّه هذه الغريزة فى الحيوان بالعقل الألكترونى الذى لا يعطيك إلا ما غذَّيْته به من معلومات .. أما العقل البشرى الربانى فهو قادر على التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ.. (٦٨) ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى قد يمتنّ على بعض عباده ويُعلّمهم لغة الطير والحيوان ، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما فى قصة سليمان عليه السلام[1] .. والله سبحانه الذى خلقها وأبدعها يُوحِى إليها ما يشاء .. فما هو الوحى ؟

الوحى : إعلام من مُعلِم أعلى لمُعلَم أدنى بطريق خفىّ لا نعلمه نحن ، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وَحْياً .

فالوَحْى إذنْ يقتضى : مُوحِياً وهو الأعلى ، ومُوحَىً إليه وهو الأدْنى ، ومُوحًى به وهو المعنىّ المراد من الوَحْى

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل] وقد قال تعالى عن سليمان وجنوده : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل].

والحق ـ تبارك وتعالى ـ له طلاقـة القدرة فى أنْ يُوحى ما يشاء لما يشاء من خَلْقه .. وقد أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجماد فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾

[الزلزلة]

أعلمها بطريق خفىّ خاص بقدرة الخالق فى مخلوقه .

وهنا أوحى سبحانه إلى النحل .

وأوحى الله إلى الملائكة :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾

[الأنفال]

وأوحى إلى الرسل :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ.. (١٦٣) ﴾ [النساء]

وأوحى إلى المقربين من عباده :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي.. (١١١) ﴾ [المائدة]

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم

وأوحى سبحانه إلى أم موسى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ..﴿٧﴾﴾ [القصص]

هذا هو وَحْي الله إلى ما يشاء من خَلْقه : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقرَّبين ، إلى أم موسى ، إلى النحل .. إلخ .

وقد يكون الوحي من غيره سبحانه ، ويُسمَّى وَحْياً أيضاً ، كما في قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ..﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام]

لكن إذا أُطلقَتْ كلمة (الوَحْي) مُطْلقاً بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحي من الله إلى الرسل ؛ لذلك يقول علماء الفقه : الوحي هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتركون الأنواع الأخرى : وَحْي الغرائز ، وَحْي التكوين ، وَحْي الفطرة .. إلخ .

وقوله : ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل]

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القدَم ، ومن هؤلاء باحث تتبَّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصَّل إلى أنَّ النحل أول ما وُجِد عاش في الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التي صنعها له البشر ، وهي ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووَجْه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصَّل إلى أن أقدمَ أنواع العسل ما وُجِد في كهوف الجبال ، وقد تَوصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصّل إلى عمره .. وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خَفيّ لا نعلمه نحن ، وعملية الوحي تختلف باختلاف الموحِي والموحَى إليه ، ويمكن أنْ نُمثِّل هذه العملية بالخادم الفَطِن الذي ينظر إليه سيده مُجرد نظرة فيفهم منها كل شيء : أهو يريد الشراب ؟ أم يريد الطعام ؟ أم يريد كذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا(١) يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

علّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكلَ النحل من كُلّ الثمرات ؛ ذلك لأن تنوُّع الثمرات يجعل العسل غنيّاً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء في الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث ؟ نرى بعض الناس يقول : أكلتُ كثيراً من

(١) ذللاً : أي ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم ١/٢٤٥] .

العسل ، ولم أشعر له بفائدة .. نقول : لأننا تدخّلنا فى هذه العملية ، وأفسدنا الطبيعة التى خلقها الله لنا .. فالأصل أن نتركَ النحل يأكل من كُلّ الثمرات .. ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزَّهْر والنوار الطبيعي ، ولذلك تغيّر طَعْم العسل ، ولم تَعُدْ له مَيْزته التى ذكرها القرآن الكريم .

لذلك ؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً فى سعره بين نوع وآخر ، ذلك حَسْب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التى حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً .. (٦٩) ﴾ [النحل]

أى : تنقّلى حُرّة بين الأزهار هنا وهناك ؛ ولذلك لا نستطيع أنْ نبنىَ للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بُدَّ له من التنقُّل من بستان لآخر ، فإذا ما جَفَّتْ الزراعات يتغذّى النحل من عسله ، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئاً ، ويضعون مكانه السكر ليتغذّى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى : ﴿ ذُلُلاً .. (٦٩) ﴾ [النحل]

أى : مُذلّلة مُمهّدة طيّعة ، فتخرج النحلة تسعى فى هذه السُّبل ، فلا يردها شيء ، ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيت شجرة مثلاً ردَّتْ نحلة ؟!.. لا .. قد ذَلَّلَ الله لها حياتها ويسَّرها .

ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّلَ لنا سُبُل الحياة .. وذلَّل لنَا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .. فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبى الصغير ، ويتحكَّم فيه يُنيخه ، ويُحمِّله الأثقال ، ويسير به كما أراد ، فى حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه .. وما تحكّم فيه الصبى الصغير بقوته ، ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صغَر حجمه يمثِّل خطراً يفزع منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذلِّله لنا ، فأفزعنا على صغَر حجمه .. كذلك لو تأملنا البرغوث مثلاً .. كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقضّ مضاجعنا ، ويحرمنا لذة النوم فى هدوء .. فهل يستطيع أحدٌ أنْ يُذلِّل له البرغوث ؟!

وفى ذلك حكمة بالغة وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذللتُ لكم شيئاً ، ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أُذلِّله لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .. إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خُذْها كما خلقها الله لك .

﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ..(٦٩) ﴾ [النحل]

ذلك أن النحلة تمتصّ الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم فى بطنها عملية طَهْى ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهْداً مُصفًّى ؛ لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تتقيؤه كما هو .. فلم يَقُلْ القرآن : من أفواهها ، بل قال : من بطونها .. هذا المعمل الإلهى الذى يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .. (٦٩) ﴾ [النحل]

ما دام النحل يأكل من كُلِّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءاتٌ مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طُعومها وروائحها .. إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ .. (٦٩) ﴾ [النحل]

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزاهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجرْون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعى كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخُّل الإنسان فى غذاء النحل بقيت فيه فائدة ، وبقيت فيه صفة الشفاء ، وأهمها امتصاص المائية من الجسم ، وأىّ ميكروب تريد أنْ تقضىَ عليه قُمْ بامتصاص المائية منه يموت فوراً .

فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعى الذى خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء ، ولكن إذا تدخَّل الإنسان فى هذه العملية أفسدها .. فالكون كله الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيْراً مستقيماً لا يتخلَّف ، كالشمس والقمر والكواكب .. إلخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذى يخرج عن منهج الله .

فالشىء الذى لك دَخْلٌ فيه ، إما أنْ تتدخَّل فيه بمنهج خالقه أو تتركه ؛ لأنك إذا تدخلْتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير ، وإنْ تدخلْتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾
[البقرة]

إنهم لا يعرفون .. لا يُفرِّقون بين الفساد والصلاح .

وفى القرآن أمثلة للناس الذين يُفسِدون فى الأرض ويحسَبون أنهم يُحسِنون صُنْعاً ، يقول تعالى :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

فالذى اخترع السيارة وهذه الآلات التى تنفث سمومها وتُلوِّث البيئة التى خلقها الله .. صحيح وفَّر لنا الوقت والمجهود فى الحمل والتنقُّل ، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عَطَب بسبب هذه الآلات .. انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان .

كان يجب على مخترع هذه الآلات أنْ يوازنَ بين ما تؤديه من منفعة وما تُسبِّبه من ضرر ، وأضف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مُروِّعة تزهق بسببها الأرواح .. وبالله هل رأيت أن تصادمَ جملان فى يوم من الأيام .. فلا بُدَّ إذن أن نقيسَ المنافع والأضرار قبل أنْ نُقدِم على الشىء حتى لا نُفسِد الطبيعة التى خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ..(٦٩)﴾ [النحل]

الناس : جَمْعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب

الداءات ، فكيف يكون في هذا الشراب شفاءٌ لجميع الداءات على اختلاف أنواعها ؟.. نقول : لأن هذا الشراب الذي أعدَّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه .. من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر .. ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس ، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس ، وتنوّع الداءات عندهم .. وكأن كل عنصر منه يُداوي داءً من هذه الدَّاءات .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل]

التفكّر : أنْ تُفكّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده ، وبذلك تُثرى المعلومات ؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحي ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء ؛ لأن الارتقاءات التي نراها في الكون هي نتيجة التفكُّر وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألاّ نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار .. يقول تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف]

ففي الآية حَثٌّ على التفكّر في ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذى اخترع الآلة البخارية .. كيف توصل إلى هذا الاختراع الذى أفاد البشرية ؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القِدْر الذى يغلى على النار يرتفع غطاؤه مع بخار الماء المتصاعد أثناء الغليان .. فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء ؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصّل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة فى تسيير ودفع العربات .

وكذلك أرشميدس ـ وغيره كثيرون ـ توصلوا بالاعتبار والتفكُّر فى ظواهر الكون ، إلى قوانين فى الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة نتمتع نحن بها الآن ، فالذى اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان فى حَمْل الأثقال ؟ وما أقصى ما يمكن أنْ يحمله ؟ فبعد أنْ اخترعوا العجلات واستُخدمت فى الحمل تمكّن الإنسان من حَمْل وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذى اخترع خزانات المياه .. كم كانت المشقة فى استخراج الماء من البئر ؟ أو من النهر ؟ فبعد عمل الخزانات وضَخِّ المياه أصبحنا نجد الماء فى المنازل بمجرد فَتْح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبّر ، وحينما يُفكّر فى ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التى خلقها الله وحثّنا على التفكّر فيها والاستنباط منها .. وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإنْ أردتُم ترفَ الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدبّر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لَفْتةً أخرى .. وهى أنه سبحانه يجعل

من المحسَّات ما يُقرِّب لنا المعنويَّات ليلفتنا إلى منهجه سبحانه ؛ ولذلك ينقلنا هذه النُّقْلة من المحسوس إلى المعنوى ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ (١) لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) ﴾

قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يَدَّعها أحدٌ لنفسه ، وقد أمدَّكم بمقوِّمات حياتكم فى الأرض والنبات والحيوان ، الأنعام التى تعطينا اللبن صافياً سليماً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذى فيه شفاء للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مُقوِّمات الحياة ، وأعطانا ما يُزيل معاطبَ الحياة .. وما دُمْتم صدَّقتم بهذه المحسَّات فاسمعوا :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعترف أن الله خلقنا ، ولكنْ كيف خلقنا ؟ هذه لا نعرفها نحن ؛ لأنها ليستْ عملية معملية .. فالذى

---

(١) أرذل العمر : هو الذى يَخْرف من الكِبَر حتى لا يعقل ، وبيَّنه بقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥) ﴾ [الحج] . [لسان العرب - مادة : رذل] . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أرذل العمر : خمس وسبعون سنة [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٤٦/٥] .

خلق هو الحق سبحانه وحده ، وهو الذى يُخبرنا كيف خلق .. أما أنْ يتدخّل الإنسان ويُقحمَ نفسه فى مسألة لا يعرفُها ، فنرى مَنْ يقول : إن الإنسان أصلُه قرد .. إلى آخر هذا الهُراء الذى لا أصْلَ له فى الحقيقة .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول لنا : إذا أردتُمْ أنْ تعرفوا كيف خُلقْتُم فاسمعوا ممَّنْ خلقكم .. إياكم أنْ تسمعوا من غيره ؛ ذلك لأننى :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ..(٥١)﴾ [الكهف]

هذه عملية لم يُطلع الله عليها أحداً : .

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١)﴾ [الكهف]

أى : ما اتخذتُ مساعداً يعاوننى فى مسألة الخَلْق .

وما هو المضلّ ؟ المضِلّ هو الذى يقول لك الكلام على أنه حقيقة ، وهو يُضلُّك .

إذن : ربنا سبحانه وتعالى هنا يعطينا فكرة مُقدّماً : احذروا ، فسوف يأتى أناس يُضلونكم فى موضوع الخَلْق ، وسوف يُغيّرون الحقيقة ، فإياكم أنْ تُصدِّقوهم ؛ لأنهم ما كانوا معى وقت أنْ خلقتكم فيدَّعُون العلم بهذه المسألة .

ونفس هذه القضية فى مسألة خَلْق السموات والأرض ، فالله سبحانه هو الذى خلقهما ، وهو سبحانه الذى يُخبرنا كيف خلق .

فحين يقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ..(٧٠)﴾ [النحل]

فعلينا أن نقولَ : سَمْعاً وطاعة ، وعلى العين والرأس .. يا ربّ أنت خلقتنا ، وأنت تعلم كيف خلقتنا ، ولا نسأل فى هذا غيرك ، ولا نُصدِّق فى هذا غير قَوْلك سبحانك .

ثم يقول تعالى :

﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ..(٧٠)﴾ [النحل]

أى : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع .. وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين ؛ فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين ؛ لأنه لا يليق بك ذلك ، فأنت منه وإليه .. فلماذا التمرد ؟

ربُّنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه فى أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين فى بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمر ، أى : يعيش عمراً طويلاً .. وماذا فى أرذل العمر ؟!

يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أنْ كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتالاً ، يُرَدُّ إلى الضَّعْف فى كل شىء ، حتى فى أمْيز شىء فى تكوينه ، فى فكره ، فبعد العِلْم والحِفْظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شىء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتيةً فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضى علينا بالموت فهذا رحمة بنا وستْر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعيننا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنّا نأمره .

ومن هنا كان التوفّى نعمةً من نعَم الله علينا ، ولكى تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدّ الله فى أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن « أرذل العمر » وما يعانونه من ضعف وما يعانيه ذووهم فى خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذى قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُستْبشراً بالموت ؛ لأنه عمَّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذى لم يُعدّ العُدّة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزِعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْف للعطف يفيد الترتيب مع التراخى .. أى : مرور وقت بين الحدثين .. فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدَث الثانى (يتوفّاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أى : تتابع الحدثين ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس]

فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى :

﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

وأرذل العمر : أردؤه وأقلّه وأخسُّه ؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، فقال :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨) ﴾ [النحل]

وهذه هي وسائل العلم في الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أرذل العمر فقدتْ هذه الحواسّ قدرتها ، وضَعُفَ عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخَرف والهرم ، فقد توقفتْ آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٧٠) ﴾ [النحل]

لذلك يُسمُّون هذه الحواس الوارث[1] .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) ﴾ [النحل]

لأنه سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلَّب عِلْماً ، كما قال سبحانه :

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ .. (١٤) ﴾ [الملك]

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : « اللهم أمتعني بسمعي وبصري ، واجعلهما الوارث مني » قال ابن شميل : أي أبقهما معي صحيحين سليمين حتى أموت . [لسان العرب - مادة : ورث] .

فـلا بُدَّ مـن علم ، لأن الذى يصـنع صَنْعـة لا بُـدَّ أنْ يعـرفَ ما يُصلحهـا وما يُفسِدها ، وذلك يتطلّب قـدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

لو نظرنا إلى الـكون من حـولنا لوجـدنا أننا لا نتسـاوى إلا فى شىء واحد فـقط ، هو أننا عبيدٌ لله .. نحن سواسيـة فى هذه فقط ، ومـا دون ذلك فنحن مـخـتلفـون فـيـه ، تخـتلف ألوانـنا ، تخـتلف أجسامنا .. صورنا .. مواهبنا .. أرزاقنا .

والعجيـب أن هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتفـاق ؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثـلاً : إذا دخلتَ أنت وصديقك أحد المطاعم وطلـبتما دجـاجة .. أنت بطبيـعتك تحب صدر الدجـاجة وصديقك يحب جزءاً آخـر منها .. هذا خلاف .. فساعة أن يأتى الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق حيث تأخـذ أنت ما تحب ، وهو كذلك .. هذا خـلاف أدى إلى وفاق .. فلو فـرضنا أن كلانـا يحب الصدر مـثـلاً .. هذا وفاق قـد يؤدى إلى خلاف إذا ما حضرَ الطعام وجلسنا : أيُنا يأخذ الصدر ؟!

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين فى أشياء ، وأراد أن يكون

هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .. فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجَد إنسان مجمعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بناء بيت مثلاً كان هو المهندس الذى يرسم ، والبنّاء الذى يبنى ، والعامل الذى يحمل ، والنجار والحداد والسباك .. الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ .. لا ..

ولكن الخالق سبحانه نثر هذه المواهب بين الناس نَثْراً لكى يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل فى الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَيْن الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جَلَّ وعَلا ، فقال :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [هود]

فقد خلقنا هكذا .

وإلاَّ فلو اتحدنا واتفقنا فى المواهب ، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمَنْ يبنى ؟ ومَنْ يزرع ؟ومَنْ يصنع ؟.. الخ

إذن : من رحمة الله أنْ جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

﴿ فِي الرِّزْقِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [النحل]

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنىّ وهذا فقير .. والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كُلّ

شيء تنتفع به فهو رِزْقك .. فهذا رِزْقه عقله ، وهذا رِزْقه قوته العضلية .. هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألاّ ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حلْم ، شجاعة .. كل هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهماً ، ولم تحدد الآية مَن الفاضل ومَن المفضول ، فكلمة - بَعْض - مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض من الأبعاض فاضل فى ناحية ، ومفضول فى ناحية أخرى .. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة .. وهكذا .

إذن : فكلٌّ واحد من خَلْق الله رَزَقه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر فى الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون .. وإذا وجدت موهبة فى واحد وكانت مفقودة فى الآخر فالمصلحة تقتضى أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة .. كيف ؟

القوىُّ يعمل للضعيف الذى لا قوةَ له يعمل بها ، فهو إذن فاضل فى قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التى يستبقى بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتي هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضّلاً من أحد على أحد ؛ لأن التفضُّل غير مُلْزَم به - فليس كل واحد قادراً على أن يعطى دون مقابل ، أو يعمل دون أجر .. إنما الحاجة هى التى تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذى ربط المجتمع ؟ هى الحاجة لا التفضُّل ، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً فى ناحية لا يغترّ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء فى الناس ، فكلٌّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغنى صاحب العظمة والجاه .. والذى قد تُلْجئه الظروف وتُحوجه لعامل بسيط يُصلح له عُطْلاً فى مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نَكِداً مُؤرّقاً حتى يُسعفه هذا العامل البسيط ، ويقضى له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضى مثل هذه المهام البسيطة فى المنزل .. وهو فى نفس الوقت فاضل على الباشا فى هذا الشىء .

فالجميع - إذن - فى الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله .. كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهبَ فى الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط فى المجتمع .

وقد عُرِضَتْ هذه القضية فى آية أخرى فى قوله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢) ﴾ [الزخرف]

البعض يفهم أن الفقير مُسخَّر للغنيّ ، لكن الحقيقة أن كلاً منهما مُسخَّر للآخر .. فالفقير مُسخَّر للغنى حينما يعمل له العمل ، والغنى مُسخَّر للفقير حينما يعطى له أجره ..

ولذلك فالشاعر العربى يقول :

النَّاسُ لِلْناسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرة بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ونضرب هنا مثلاً بأخسِّ الحرف فى عُرْف الناس - وإنْ كانت الحِرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسَّة طالما يقوت الإنسان منها نفسه وعياله من الحلال .. فالخِسَّة فى العاطل الأخرق الذى لا يُتقِن عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم أفضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التى يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشترى علبة الورنيش هذه .. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط .

فقوله تعالى :

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

مَنْ منَا يُسخَر الآخر ؟! كُلٌّ منا مُسَخَّر للآخر ، أنت مُسخَّر لى فيما تتقنه ، وأنا مُسخَّر لك فيما أتقنه .. هذه حكمة الله فى خَلْقه ليتم التوازن والتكامل بين أفراد المجتمع .

وربُّنا سبحانه وتعالى لم يجعل هذه المهن طبيعيةً فينا .. يعنى هذا لكذا وهذا لكذا .. لا .. الذى يرضى بقدر الله فيما يُناسبه من عمل مهما كان حقيراً فى نظر الناس ، ثم يُتقن هذا العمل ويجتهد فيه ويبذل فيه وُسْعه يقول له الحق سبحانه : ما دُمْتَ رضيتَ بقدرى فى هذا العمل لأرفعنّك به رِفْعة يتعجَّب لها الخَلْق ..

وفعلاً تراهم ينظرون إلى أحدهم ويشيرون إليه : كان شيالاً .. كان أجيراً .. نعم كان .. لكنه رَضِى بما قسم الله وأتقن وأجاد ، فعوَّضه الله ورفعه وأعلى مكانته .

ولذلك يقولون : مَنْ عمل بإخلاص فى أىّ عمل عشر سنين يُسيِّده الله بقية عمره ، ومَنْ عمل بإخلاص عشرين سنة يُسيِّد الله أبناءه ، ومَنْ عمل ثلاثين سنة سيَّد الله أحفاده .. لا شىء يضيع عند الله سبحانه .

فليس فينا أعْلى وأدْنى ، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلى من الناس ، نحن سواسية ، ولكن منَّا من يُتقن عمله ، ومنَّا مَنْ لا يتقن عمله ؛ ولذلك قالوا : قيمة كل امرىء ما يُحسنه .

ولا تنظر إلى زاوية واحدة فى الإنسان ، ولكن انظر إلى مجموع الزوايا ، وسوف تجد أن الحق سبحانه عادلٌ فى تقسيم المواهب على الناس .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلة بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوى مجموع كُلٍّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة .. الخ لوجدت نصيب كُلٍّ منّا فى نهاية المعادلة يساوى نصيب الآخر ، فأنت تزيد عنى فى القوة ، وأنا أزيد عنك فى العلم ، وهكذا .. لأننا جميعاً عبيدٌ لله ، ليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. (٧١) ﴾ [النحل]

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك .. والمعنى : أننا لم نَرَ أحداً منكم فضَّله الله بالرزق ، فأخذه ووزَّعه على عبيده ومماليكه ، أبداً .. لم يحدث ذلك منكم .. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أنْ يُوزِّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن فى الآية إقامةٌ للحجة عليهم ، واستدلال على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى[1] .

وكأن القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فَضَّل بعضكم فى

---

(١) عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله .. فقال الله لهم : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. (٧١) ﴾ [النحل] قال القرطبى فى تفسيره (٣٨٦٨/٥) : « أى : لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرعاً سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم ، فتجعلون لى ولداً من عبيدى » .

الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، ووزَّعه على عبيده ؟ .. أبداً .. لم يحدث منكم هذا .. فكيف تأخذون حق الله في العبودية والألوهية وحقَّه في الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه للأصنام والأوثان ؟!

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون .. فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى في آية أخرى :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الروم]

أي : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟ فهذه لَقْطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (٧١) ﴾ [النحل]

أي : أنكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضَّلَنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطي أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ، فإذا ما طلب منك أن تعطي أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من زكاة يقول لك :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنِّعَم ، يطلب منك أنْ